# أصل دليل الحدوث عند الإمام الباقلاني وأثره في تقرير الصفات

**إعداد**
**مصطفى بن محمد بن أحمد بنديسور**
**باحث بجامعة الإمام محمد بن آل سعود**

## مقدمة

الحمد لله الواجب وجوده وبقاؤه، الممتنع تغيره وفناؤه، العظيم قدره واستعلاؤه، العميم نعماؤه وآلاؤه، الدالة على وحدانيته أرضه وسماؤه، المتعالية عن شوائب التشبيه والتعطيل صفاته وأسماؤه، ولا يجري في الدارين من الأفعال إلا ما يريده ويشاؤه، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه، أحمده على جزيل نعمه، وجميل كرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون.

أما بعد،،

فإن أشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام، الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته وأفعاله ومتعلقاته؛ إذ شرف كل علم إنما هو تابع لشرف موضوعه الباحث عن أحواله العارضة لذاته، ولا محالة أن شرف موضوع هذا العلم يزيد على شرف كل موضوع، ويتقاصر عن حلول ذراه كل موجود مصنوع، إذ هو مبدأ الكائنات، ومنشأ الحادثات، وهو بذاته مستغن عن الحقائق والذوات، مبرأ في وجوده عن الاحتياج إلى العلل والمعلولات، كيف والعلم به أصل الشرائع والديانات، ومرجع النواميس الدينيات، ومستند صلاح نظام المخلوقات، ومن المعلوم أن مذهب أهل الحق من أهل الملل كلها أن العالم مُحدَث ومخلوق، أحدثه الباري تعالى وأبدعه، وكان الله تعالى ولم يكن شيء معه، ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين ، والذي يستوي في إدراكه كل مميز ، والذي هو أجلَى مظاهر التغير في هذا العالم، **فهو دليل الحدوث**، وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم، حتى الجمادات، فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل، وتشرق وتضيء بضياء النهار ، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة

على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائماً؛ لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما؛ ولأن النعمة بتعاقبهما دوماً أشد من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما؛ لأنه لو كان دائماً لكان مسؤوماً، ولحصلت منه طائفة من المنافع ، وفقدت منافع ضده، فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلاً إلى ما هو دون.

ولقد تعرضت الأمة لتيارات فكرية متباينة من داخلها وخارجها وجهت للإسلام وأهله تساؤلات حول الخالق سبحانه وتعالى، لا يرضون في الإجابة عنها دليل النقل؛ لأنهم منكرون له، فسلك كثير من الأئمة الأعلام طريق العقل في الإجابة عن هذه التساؤلات، مصطحبين في صنيعهم هذا دليل النقل، وقد كان الإمام أبو بكر الباقلاني – رحمه الله تعالى – من هؤلاء الأئمة الذين وهبوا حياتهم وعلمهم للدفاع عن عقيدة السلف، والرد على المخالفين والملحدين من الجهمية، والمعتزلة، والخوارج وغيرهم. والذي تعدّ آراءه في كتبه الترجمة العلمية لما جال في خاطره، ولما اعتمل في ذهنه من أمور ، ولعل من أبرز هذه الأمور في الاستدلال على وجود الله تعالى دليل حدوث الأجسام، هذا الدليل الذي ساقه وصاغه الإمام الباقلاني بطريقة عقليه له فيها وجهة نبوية، كان تابعا فيها لنبي الله إبراهيم عليه السلام.

لذا آثرت في هذا البحث بيان هذا الدليل وكيفية استدلال الإمام الباقلاني به على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وكيف استدل به وما هي وجهته الشرعية في ذلك، وأثر هذا الدليل في تقرير الصفات عند الإمام الباقلاني.

**تساؤلات البحث**:

يثير البحث عدة تساؤلات منها:

ما مفهوم دليل الحدوث؟ وهل لهذا الدليل أصل في الكتاب والسنة؟ أم أنه دليل كلامي ؟ وإذا كان دليلا كلاميا فما مدى موافقته للوحي من عدمها؟

**أهداف البحث**:

يهدف البحث إلى الوصول للإجابة عن كل سؤال من هذه التساؤلات فيهدف إلى:

بيان مفهوم دليل الحدوث وبيان استدلال الإمام أبي بكر الباقلاني به على وجود الله تعالى

كيفية استدلال الإمام الباقلاني بدليل الحدوث وتأصيله لهذه الاستدلال من القرآن

المساهمة في بيان بعض جهود الأئمة في الذب عن دين الله تعالى وبيان شبه الملحدين في ذلك

**منهج البحث**:

سلكت في هذا البحث المنهج التحليلي الاستنباطي.

المنهج التحليلي وذلك أثناء عرض الأقوال ومناقشتها، والاستنباطي لاستخلاص أهم النتائج للبحث

**خطة البحث**

يتكون هذا البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس عامة

أما المقدمة فقد بينت فيها تساؤلات البحث وأهدافه والمنهج المتبع فيه

المبحث الأول: التعريف بالإمام الباقلاني وآثاره العلمية

المطلب الأول: التعريف بالإمام الباقلاني

المطلب الثاني: الآثار العلمية للإمام الباقلاني ووفاته

المبحث الثاني: أصل دليل الحدوث وأثره في تقرير الصفات عند الإمام الباقلاني

المطلب الأول: أصل دليل الحدوث عند الإمام الباقلاني

المطلب الثاني: أثر دليل الحدوث في تقرير الصفات عند الإمام الباقلاني

أما الخاتمة فقد اشتملت على النتائج

## المبحث الأول
## التعريف بالإمام الباقلاني وآثاره العلمية

### وفيه مطلبان:
### المطلب الأول
### التعريف بالإمام الباقلاني

اسمه وكنيته ولقبه:

أولا: اسمه

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم.

ثانيا: كنيته

تكنى الإمام محمد بن الطيب بأبي بكر.

ثالثا: لقبه

لقب بالقاضي الباقلاني البصري المتكلم الفقيه(١).

الباقلاني نسبة إلى الباقلي وبيعه وهي بفتح الباء الموحدة، وبعد الألف قاف مكسورة ثم لام ألف وبعدها نون، وفيه لغتان من شدد اللام قصرا لألف، ومن خففها مد الألف فقال: باقلاء وهذه النسبة شاذة لأجل زيادة النون فيها.

البصري؛ لأنه نشأ في البصرة وقضى فيها فترة شبابه قبل أن يهاجر منها إلى بغداد ليقيم فيها بقية حياته، والمتكلم؛ لأنه اتجه إلى علم الكلام نظرا لكثرة الملحدين في العراق في القرن الرابع الهجري، وظهور مذهب أبي حسن الأشعري ودفاعه عن آرائه وجداله الشديد للمعتزلة، وأنصاره يقولون: إنه أعرف الناس بعلم

---

١- تاريخ بغداد (٣٧٩/٥)، الأنساب (٢٦٦/١)، ترتيب المدارك (٤٤/٧).

الكلام، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة، وله في كتب الكلام آراء كثيرة يعتد بها.

والفقيه؛ لأنه كان من كبار فقهاء المذهب المالكي(١).

ولقد كان الإمام أبو بكر الباقلاني فيلسوف المذهب الأشعري وأفضل المنتسبين إليه، الذي بلور آراء المذهب، ورتب دلائله.

وقد قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده(٢).

وقد عمل الإمام الباقلاني على نصرة مذهب الإمام الأشعري، وصار إماما له بعد أن تناوله بالتهذيب، ووضع لمسائل علم الكلام المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يبقى زمانين، وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الدينية في وجوب اعتقادها وذلك لتوقف تلك الأدلة – في رأيه – عليها؛ ولأن بطلان الدليل يؤذن – كما يقول– ببطلان المدلول.

وكان –كما يقول الشهرستاني في الملل والنحل: "يثبت الصفات معاني قائمة به تعالى أحوالا(٣).

<u>**ذكاؤه وقوة لَسْنُه وثناء العلماء عليه:**</u>

تتحدث المصادر التي تعنى بالتراجم للعلماء كثيرا عن ذكاء الإمام الباقلّاني، وقوة لسنه وحجته، وسرعة بديهته، وإفحامه للخصوم، ومما يدل على ذلك أن أرسله الملك الملقب بعضد الدولة في سفارة رسمية إلى ملك الروم عام ٣٧١هـ

---

١– ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٢٠٤/٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٧/٣، تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧.

٢– مجموع الفتاوى ٩٨/٥، شذرات الذهب ١٦٩/٣.

٣– الملل والنحل ١٢٩/٢.

فأدخلوه وهو في عاصمة الروم على بعض القسس، فقال الباقلاني للبابا: كيف أنت وكيف الأهل والأولاد؟ فتعجب البابا وقال له: ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة، أنك لسان الأمة، ومتقدم على علماء الملة.. أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد؟ فأجابه الباقلاني: رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والأولاد.. فهل المطارنة عندكم أقدس وأجلّ وأعلى من الله سبحانه؟

فأراد كبير الروم أن يخزي القاضي الباقلاني، فقال له: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيّكم وما قيل فيها؟ فأجابه: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا، ومريم أم المسيح، فأما زوج نبينا فلم تلد.. وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وقد برأهما الله مما رميتا به.. فانقطع الرومي ولم يحر جوابا(١)!!.

ولقد ذكرت المصادر أن الباقلاني كان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، كثير التطويل في المناظرة، أكسبته عقليته الفذة منزلة رفيعة، ومكانة مرموقة على المستوى العلمي والرسميّ.

جرى يوما بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة، وأكثر القاضي أبو بكر فيها الكلام، ووسع العبارة، وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: "اشهدوا علي أنه إن أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب." فقال الهاروني: اشهدوا عليّ أنه إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال"(٢).

---

١- تبيين كذب المفتري ص٢١٨، فهرسة اللبلي ص٥٦.

٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢٦٩/٤، مرآة الجنان ٧/٣.

**شيوخه ومعاصروه:**

تلمذ الإمام الباقلاني على مجموعة من العلماء كان لهم أكبر الأثر في تغذية عقليته، وصقل موهبته، وتنوع اهتماماته العلمية، منهم:

١- ابن مجاهد الطائي، وعنه أخذ علم الكلام والفقه المالكي وأصوله.

٢- والشيخ الصالح أبو الحسن الباهلي الذي أخذ عنه علم الأشعري.

٣- ومحمد الأبهري المالكي.

٤- والحسين النيسابوري.

٥- أبو بكر بن مالك.

٦- وأبو محمد بن ماسي، والقطيعي وغيرهم من أعلام القرن الرابع الهجري في الدين والشريعة(١).

كما عاصر الباقلاني مجموعة غير قليلة من العلماء النابهين الذين كان لهم شأنهم في تيار الثقافة الإسلامية، من هؤلاء: إبراهيم بن محمد الإسفراييني المتوفي سنة ٤١٨هـ ، وأبو بكر محمد بن الحسن فورك المتوفي سنة ٤٠٦هـ وغيرهما من الأعلام الذين شهد لهم بالمقدرة العلمية، وقد وصفهم الصاحب بن عباد كما نقل عنه ابن عساكر وغيره بقوله: "ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صل(٢) مطرق، والإسفراييني نار تحرق(٣)."

١- سير أعلام النبلاء ٢١١/١٦.

٢- الصل : بكسر الصاد ، الحية التي لا تنفع فيها الرقية . ومنه قالوا : فلان صل مطرق.

٣- تبيين كذب المفتري ص٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٣٥٤/١٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٧/٤، شذرات الذهب ١١٦/٣.

**تلاميذه:**

أما تلاميذه فهم كثيرون.. يكفي أن نعلم أن الرجل كان يبذل علمه في جامع المنصور ببغداد حيث كانت له حلقة كبيرة، يتحلق فيها مقدروا علمه وطالبوا فضله منهم:الحافظ أبو ذر الهروي، وأبو جعفر محمد بن أحمد السمناني، وقاضي الموصل، والحسين بن حاتم الأصولي.

بيد أن أشهر تلاميذه ما ذكرتهم المصادر القديمة وهم أبو عبد الله الأزدي، وأبو طاهر البغدادي اللذان هاجرا إلى المغرب العربي – القيروان – ونشرا علمه هناك(١).

١- سير أعلام النبلاء ١٩١/١٧، شذرات الذهب ٢٢/٥

## المطلب الثاني

## آثاره العلمية ووفاته

أنتجت عقلية الباقلاني مجموعة كثيرة من الكتب الدينية ذات الصبغة الكلامية، والتي تتناول الرد على المخالفين والملحدين والمتفلسفين. يقولون أنه صنف سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدين.. كل ليلة خمسة وثلاثين ورقة، كل ذلك إظهاراً لعلم الرجل، وإبرازاً لمكانته الدينية والعلمية، بيد أن أشهر كتبه على الإطلاق هو كتابه (إعجاز القرآن) الذي حدّد فيه مفهومه للإعجاز القرآني وقد طبع هذا الكتاب مراراً في القاهرة.

ومؤلفات الباقلاني تبلغ (٥٥) مؤلفاً، وقد ذكر أكثرها القاضي عياض ، ثم ذكرها وفصل القول فيها السيد أحمد صقر، وأكثرها مفقود، وغالب ما وجد منها كتبه الكلامية أو ما هو قريب منها.

ومن أهم كتبه الكلامية: تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، وكتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات(١).

ويروى أن له كتابا في (الملل والنحل) وكتابا آخر ذكره صاحب كشف الظنون واسمه (هداية المسترشدين في الكلام) كما ذكرت المصادر له (كتاب الانتصار) و (كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج) وقد نشر الكتاب الأخير الأستاذان محمود محمد الخضري ومحمد عبد الهادي أبو ريدة(٢).

وفاته:

مات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة (٤٠٣هـ) – رحمه الله – وصلى عليه ابنه حسن، وكانت

---

١- ترتيب المدارك " ٤ / ٦٠١، ٦٠٢.

٢- سير أعلام النبلاء ١٩١/١٧، شذرات الذهب ٢٢/٥

جنازته مشهودة، وكان سيفا على المعتزلة والرافضة والمشبهة، وغالب قواعده على السنة، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مناديا يقول بين يدي جنازته:

هذا ناصر السنة والدين، والذاب عن الشريعة، هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة.

ثم كان يزور قبره كل جمعة (١)

١- سير أعلام النبلاء ١٩٣/١٧، كذب المفتري " ٢٢٣، ٢٢٤، و" وفيات الأعيان " ٤ / ٢٧، و" الوافي بالوفيات " ٣ / ١٧٧.

# المبحث الثاني

# أصل دليل الحدوث وأثره في تقرير الصفات عند الإمام الباقلاني

وفيه مطلبان:

## المطلب الأول

## أصل دليل الحدوث وبيانه عند الإمام الباقلاني

إن مسألة قدم العالم وحدوثه من المسائل التي دار حولها الجدال بين الفلاسفة والمتكلمين، فالذي استقر عليه رأي جمهور الفلاسفة القول بقدم العالم؛ وأنه لم يزل موجودا مع الله تعالى؛ ومعلولا له؛ ومساوقا له؛ غير متأخر عنه بالزمان؛ مساوقة المعلول للعلة؛ ومساوقة النور للشمس[1].

أما المتكلمون فاستنكروا هذه المقالة العجيبة، واجتهدوا في الاستدلال على حدوث العالم، لأنها قضيتهم الكبرى التي تبنى عليها العقائد، فلا يمكن إثبات وجود الله تعالى وربوبيته إلا بعد إبطال القول بقدم العالم.

وليس المقصود ههنا بيان النزاع بين المتكلمة والفلاسفة في حدوث العالم، وإنما نقصد الكلام عن دليل عقلي كان هو عمدة النظار من أهل الكلام في التدليل على حدوث العالم، ومنه إثبات وجود الصانع – عندهم ، وهذا الدليل هو ما يسمى بدليل حدوث الأجسام أو دليل الأعراض...

١- أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق وتقديم: الدكتور سليمان دنيا، ص ٨٨.

وخلاصة هذا الدليل أن العالم مكون من جواهر وأعراض حادثة، وكل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، ولا بد لهذه الجواهر والأعراض من محدث، وهو الله.

والاستدلال بهذا الدليل بأصوله ومقدماته من منهج الفلاسفة؛ وليس من منهج الأنبياء والمرسلين، ويقرر إمام المذهب أبو الحسن الأشعري في كتابه الموسوم بـ: " رسالة إلى أهل الثغر " أن أخبار الرسول – ﷺ – في الاستدلال هي: "أوضح دلالة من دلالة الأعراض التي اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة، ومن اتبعها من القدرية، وأهل البدع المنحرفين عن الرسل عليهم السلام "([1]).

فطريقة الجواهر والأعراض – حسب الأشعري – لا يسلكها إلا أهل البدع المنحرفين عن منهاج المرسلين، وقد برر الأشعري ذمه لتلك الطريقة بأمور:

" إن الأعراض لا يصح الاستدلال بها إلا بعد رتب كثيرة يطول الخلاف فيها، ويدق الكلام عليها، فمنها ما يحتاج إليه في الاستدلال على وجودها والمعرفة بفساد شبه المنكرين لها، والمعرفة بمخالفتها للجواهر في كونها لا تقوم بنفسها، ولا يجوز ذلك على شيء منها، والمعرفة بأنها لا تبقى والمعرفة باختلاف

١- أبو الحسن الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ١٨٥.

أجناسها، وأنه لا يصح انتقالها من محالها، والمعرفة بأن ما لا ينفك منها فحكمه في الحدث حكمها، ومعرفة ما يوجب ذلك من الأدلة وما يفسد به شبه المخالفين في جميع ذلك حتى يمكن الاستدلال بها على ما هي أدلة عليه عند مخالفينا الذين يعتمدون في الاستدلال على ما ذكرناه بها، لأن العلم بذلك لا يصح عندهم إلا بعد المعرفة بسائر ما ذكرناه آنفا، وفي كل مرتبة مما ذكرنا فرق تخالف فيها، ويطول الكلام معهم عليها"(١).

ويمكن أن نجمل مؤاخذات الإمام أبي الحسن الأشعري على دليل الحدوث فيما يلي:

- طول هذه الطريقة ووعورة مسالكها.

- تطلبها لمجهود كبير في إثبات مقدماتها وإبطال شبه المنكرين لها، إذ أن في كل مرتبة من مراتبها فرق تخالف فيها، مما يجعلها كثيرة الممانعات والمعارضات.

- معرفة اللوازم التي تترتب على كل مقدمة هي دليل عند الخصم لإلزامه بها.

---

١- أبو الحسن الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ١٨٦-١٨٧.

فهذه الأمور التي أشار إليها الأشعري تجعل الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر على حدوث العالم وإثبات الصانع أمرا صعبا؛ يتطلب من المستدل جهدا كبيرا لإثبات المقدمات ودفع ما يعارضها، " وليس يحتاج – أرشدكم الله – في الاستدلال بخبر الرسول – عليه السلام – على ما ذكرناه من المعرفة بالأمر الغائب عن حواسنا إلى مثل ذلك، لأن آياته والأدلة الدالة على صدقه محسوسة مشاهدة قد أزعجت القلوب، وبعثت الخواطر على النظر في صحة ما يدعو إليه، وتأمل ما استشهد به على صدقه، والمعرفة بأن آياته من قبل الله تدرك بيسير الفكر فيها، وأنها لا يصح أن تكون من البشر لوضوح الطرق إلى ذلك"([1]).

١- أبو الحسن الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ١٨٨-١٨٩.

ويكشف أبو الحسن الأشعري عن سبب استدلال الفلاسفة بهذا الدليل، فيقول: " وإنما صار من أثبت حدث العالم والمحدِث له من الفلاسفة إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر لدفعهم الرسل وإنكارهم لجواز مجيئهم "([1]).

والحاصل أن أبا الحسن الأشعري كان له موقف من الاستدلال بطريقة الجواهر والأعراض على حدوث العالم وإثبات الصانع، ويمكن إجمال هذا الموقف فيما يلي:

- أن أصل دليل الحدوث يرجع ابتكاره واعتماده إلى الفلاسفة.
- أن دليل الحدوث ليس من هدي الأنبياء والمرسلين.
- أن سبب اعتماد الفلاسفة على هذا الدليل هو إنكارهم للنبوات وعدم إيمانهم بالأنبياء.
- غموض هذا الدليل وصعوبة مسالكه.

لهذه الأمور ذم الأشعري دليل الحدوث، لكن عند التأمل في مناهج الأشاعرة نجد أن أكثرهم سلكوا طريقة الأعراض وحدوث الأجسام لإثبات وجود الله تعالى،

---

١- أبو الحسن الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ١٩١-١٩٢.

ومن أبرز هؤلاء القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني – وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري ؛ ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده([١])، كان من أساطين المذهب الأشعري، ولم يكن مجرد ناقل لمعتقد الأشاعرة بل كان مقعدا للمذهب حيث " وضع المقدمات العقلية، التي تتوقف عليها الأدلة، والأنظار، وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين. وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم "([٢]).

ويقرر ابن خلدون أن الباقلاني يجعل هذه القواعد تابعةً للعقائد الإيمانية من حيث وجوب اعتقادها، وذلك لأن الأدلة تبنى عليها، ولأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول.

ولعل الباعث على هذا التقعيد من الباقلاني تحقيق أمور محددة والبرهنة بالحجج العقلية على مسائل هامة يقوم عليها أساس الاعتقاد، منها إثبات وجود الله.

---

١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى – (ج ٥ / ص ٩٨)

٢- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أحمد جاد، راجعه وقدم له: عبد الباري محمد الطاهر، دار الغد الجديد – القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٤٣٤.

يقول الباقلاني: " إن أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد: النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته، وشواهد ربوبيته؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة، والبراهين الباهرة"([١]).

فالباقلاني واحد من الذين يوجبون النظر لمعرفة الله تعالى، ذلك أن الله – عنده – لا يعرف ضرورة من غير استدلال، بل لابد من النظر في هذا العالم الدال على ربوبية خالقه وفق مقدمات عقلية محددة، ينتظمها دليل مخصوص؛ يعرف عند المتكلمين بدليل الحدوث.

فما هو دليل الحدوث عند الباقلاني ؟ وما أثر الاستدلال به في مسائل العقيدة ؟

لقد سلك القاضي كغيره من الأشاعرة دليل الحدوث للدلالة على حدوث العالم ومن ثم إثبات وجود الصانع، وهذا الدليل يقوم على إثبات: أن العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فالعالم لا بد له من محدث أحدثه، وهو الخالق سبحانه وتعالى.

---

١- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٢٢.

ولم يأل القاضي جهدا في الاستدلال على كل مقدمة من هذه المقدمات وتقريرها، فتصانيفه شاهدة على ذلك، يقول الباقلاني: " والموجودات كلَّها على ضربين: قديم لم يزل، ومحدث لوجوده أول " (1).

فقد قسم الموجودات إلى قسمين: قديم لم يزل وهو الله تعالى، وصفات ذاته التي لم يزل متصفاً بها ولا يزال كذلك... والقسم الثاني: محدث، لوجوده أول، أي لم يكن ثم كان.

ونلاحظ أن الباقلاني لا حرج عنده في إطلاق لفظ "موجود" على الخالق والمخلوق، وهذا هو الحق، فالموجود شيء ثابت ليس بمعدوم منتف، والخالق موجود والمخلوق موجود، لكن ليس الوجود كالوجود فوجود الخالق واجب لا يقبل الانتفاء؛ ووجود المخلوق ممكن يقبل الانتفاء.

ومذهب الأشعري وعامة أصحابه بما فيهم الباقلاني أن وجود كل شيء عين ماهيته وهذا مذهب جماهير العقلاء من المسلمين وغيرهم.

---

١- أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي، ص ٤١.

فالوجود اسم عام ينقسم إلى: قديم هو الله تعالى؛ ومحدث هو ما سوى الله وهو العالم، ثم أخذ يبين أجزاء هذا العالم فقال: " المحدثات كلها على ثلاثة أقسام: جسم، وجوهر، وعرض "(١).

" فالجسم هو المؤلف "(٢)، أي مركب من أجزاء، وعند الباقلاني " الأجسام كلها من جنس واحد"(٣)، والجوهر هو" الذي له حيز، والحيز هو المكان أو ما يقدر تقدير المكان عن أنه يوجه فيه غيره "(٤)، فهو عبارة عن المتحيز، وخاصيته أنه

---

١- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٦.

٢- أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي، ص ٤١.

٣- المصدر السابق، ص ٥٦.

٤- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٦.

" يقبل من كل جنس من أجناس الأعراض عرضاً واحداً "([1])؛ فلا يقبل من الأكوان: الاجتماع والافتراق معاً في زمان ومكان واحد، كما لا يقبل من الألوان: البياض والسواد معاً،.. إلخ.

" والعرض: هو الذي يعرض في الجوهر، ولا يصح بقاؤه وقتين"([2])، فالعرض هو معنى يحتاج في وجوده إلى الجوهر باعتباره محلا يقوم به، كاللون المفتقر في وجوده إلى جسم يحله ويقوم به، وكذلك الطعوم والروائح، والحياة والموت، والعلوم والإرادات...، وميزة العرض أنه لا يبقى زمانين، بل يتجدد حالاً فحالاً؛ كالماء الدافق من الميزاب يسيل مستمراً؛ وهو أمثال تتوارد.

وبعد تعريفه للأعراض يمضي الباقلاني للكلام في إثبات الأعراض حيث يستدل على ثبوتها بدليل عقلي بناه على الحركة والسكون، وفي هذا يقول: " والدليل على إثبات الأعراض تحرُّك الجسم بعد سكونه، وسكونه بعد حركته. ولا بد أن

١ - أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي، ص ٤١.

٢- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٦.

يكون ذلك كذلك لنفسه أو لعلة. فلو كان متحركاً لنفسه ما جاز سكونه؛ وفي صحة سكونه بعد تحركه دليل على أنه متحرك لعلة؛ هي الحركة "([1]).

فالجسم حسب رأي الباقلاني يتحرك بعد سكونه لمعنى هو الحركة، وهذه الحركة عرض يتجدد في كل حين.

والأعراض عنده فهي حوادث، واستدل على حدوثها بدليل: " بطلان الحركة عند مجيء السكون؛ لأنها لو لم تبطل عند مجيء السكون لكانا موجودين في الجسم معاً، ولوجب لذلك أن يكون متحركاً ساكناً معاً، وذلك مما يعلم فساده ضرورة"([2]).

وبعد هذه المقدمة في إثبات الأعراض والتدليل على حدوثها انتقل الباقلاني للمقدمة الثانية وهي البرهنة على حدوث الأجسام، فقال: " والدليل على حدوث

١ – أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي، ص ٤٢.

٢ – المصدر السابق، ص ٤٤.

الأجسام: أنها لم تسبق الحوادث، ولم تخل منها..."([1])، وأكثر من هذا فإنه لا يجوِّز أن يسبق الجسم الحوادث، وذلك لأنا – حسب رأيه – " نعلم باضطرار أنه متى كان – أي الجسم – موجوداً فلا يخلو أن يكون متماس الأبعاض مجتمعاً أو متبايناً مفترقاً؛ لأنه ليس بين أن تكون أجزاؤه متماسة أو متباينة منزلة ثالثة؛ فوجب أن لا يصح أن يسبق الحوادث؛ وما لم يسبق الحوادث فواجب كونه محدثا؛ إذ كان لا بد أن يكون إنما وجد مع وجودها أو بعدها؛ فأي الأمرين ثبت وجب به القضاء على حدوث الأجسام ".([2])

وبهذا يثبت الباقلاني حدوث الأجسام كما أثبت حدوث الأعراض، ومادام العالم لا ينفك علويه وسفليه من أن يكون جسماً مؤلفاً، أو عرضاً محمولاً، وجب الحكم بأن العالم محدث بأسره.

---

١- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٧-١٨.

٢- أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي، ص ٤٤.

ويمكن تلخيص دليل الحدوث عند الباقلاني هكذا:

العالم كله مؤلف من جواهر وأجسام وأعراض.

والأعراض حوادث.

والأجسام حادثة؛ لأنها " لم تسبق الحوادث، ولم توجد قبلها، وما لم يسبق المحدث: محدث "([1]).

فالعالم إذا حادث بأسره لأنه لا يخلو من الحوادث.

وإذا صح حدوث العالم؛ فلا بد له من محدث أحدثه، ومصور صوره، وهو الله سبحانه وتعالى.

فهذا هو دليل الحدوث عند الباقلاني، وقد ذكره وهو يبيّن للحرّة ما يجب على المكلف اعتقاده ولا يسعه الجهل به.

لكن السؤال المطروح: هل لهذا الدليل أصل في الكتاب والسنة أم هو دليل كلامي لا علاقة له بالوحي؟ وإن كان أصلا كلاميا فهل كان موافقا للوحي أم معارضا؟

لقد سبق القول بأن دليل الجواهر والأعراض ليس من طريقة الأنبياء، ثم إن أول من استدل بهذا الدليل الفلاسفة، وعلة ذلك إنكارهم للنبوات وعدم إيمانهم بما جاء

١ - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ص ٤٤.

به المرسلون، ثم تبعهم من تبعهم من المتكلمين القاضي الباقلاني، ولا أقول أنه في اتباعه للفلاسفة كان من المنكرين للأنبياء؛ وليس هذا هو الظن به بل إنه من الأئمة المثبتين للنبوات، وإنما كان الحامل له على الاستدلال بالجواهر والأعراض هو محاججة الفلاسفة بأدلتهم وإبطال شبههم، فهذا هو الظن به وبأمثاله من الأعلام.

وقد ذكر القرطبي أن الصحابة أيضا لم يعرفوا هذه الطريقة، فقال: " ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والشافعي.

وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضلالا..."([1]).

وهذا أبو حامد الغزالي أحد أئمة الأشاعرة؛ ومن الذين اعتمدوا دليل الحدوث في إثبات وجود الصانع، يصرح بأن هذا الدليل لم يكن من طريقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولا أصحابه – رضوان الله عليهم –، وفي هذا يقول: "فليت شعري متى نقل عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم

---

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار طيبة، الطبعة الثانية – الرياض، ١٤٢٩ هـ، المجلد: ١٧، ص:٢٩٣.

إحضار أعرابي أسلم، وقوله له: الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث "[1]".

---

١- أبو حامد الغزالي، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، ص: ٢٦٩.

## المطلب الثاني

## أثر دليل الحدوث في تقرير الصفات عند الإمام الباقلاني

إن الناظر في كلام الإمام الباقلاني يجد أنه لم يستدل بدليل الحدوث بلا مستند من القرآن الكريم وبلا دليل؛ بل له دليل من القرآن يستند عليه؛ ويستدل به على طريقته بأنها طريقة الأنبياء؛ وهي قصة الخليل – عليه السلام – وفي هذا يقول: " وكذلك الخليل عليه السلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾(١)، إلى آخر الآيات فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ

١– سورة الأنعام، الآيات: ٧٧،٧٨،٧٩.

أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾(١)"(٢).

وهكذا يقرّر أن مراد إبراهيم – عليه السلام – بقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾(٣) أن هذا هو فاطر العالم وخالقه، وأنه استدل بالأفول وهو الانتقال على عدم ربوبيته، لأن التغير أو الانتقال حادث، والحادث لا يقوم إلا بحادث، فهي سمة الحدوث، وهذه الحجة هي الدالة على حدوث الموجودات وحدوث العالم.

واعترض على الباقلاني وغيره من المتكلمين في هذا الاستدلال من وجوه:

١- سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

٢- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٣٠.

٣- سورة الأنعام، الآيات: ٧٧.٧٨.٧٩.

– أولا: تفسير الأفول بالتغير والانتقال غير صحيح في اللغة العربية لأن أهل اللغة([1])، وغريب القرآن([2]) يفسرون الأفول بالمغيب والاحتجاب، وعلى هذا المعنى أئمة التفسير([3])، كما أن الماوردي([4]) والعز بن عبد السلام([5])

١– إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، (ج ٤/ ص١٦٢٣)، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، (ج ١/ص١١٩)، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، نشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، مادة (أفل).
٢– أبو القاسم الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، نشر: دار المعرفة – لبنان ، (ص ٢٠).
٣– أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، (ج ١١/ص ٤٨٥)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، نشر: دار طيبة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، (ج ٣/ ص ١٦٢)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، (ج ٣/ ص ٢٩١).
٤– أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، (ج ٢/ ص ١٣٧).
٥– عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، اختصار النكت للماوردي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم . بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م، (ج ١/ ص ٤٤٧).

والقرطبي[1]، وهم من الأشاعرة، ذهبوا إلى تفسير الأفول بالمغيب.

– ثانيا: لم يكن مراد الخليل الاستدلال بقاعدة: " ما قامت به الحوادث فهو حادث "، فلو كان كذلك لاستدل بالبزوغ الذي هو من الحوادث على حدوث الكوكب من حين بزوغه، **ولم** يستمر على ما كان عليه إلى حين المغيب، فبان بأن قصة إبراهيم هي على نقيض مطلوب الباقلاني؛ لأنه حينئذ لم يكن التغير والانتقال عند الخليل مانعا من كونه رب العالمين وإنما المانع هو أفول الكواكب ومغيبها عن عين عابديها.

وبهذا الاعتراض يبقى استدلال الباقلاني بقصة الخليل ضعيفا في مناهضة قول الأشعري وغيره من أئمة السنة بأن دلالة الجواهر والأعراض ليست طريقة الأنبياء.

ومهما يكن من أمر فإن الباقلاني بعد عرضه لدليل الحدوث بمقدماته ونتيجته التي توصل إلى وجوب العلم بحدوث العالم؛ أشار إلى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد وضّح ذلك بأوضح الطرق، حيث قال: " وقد بيّن نبينا صلى الله عليه وسلم هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة

---

١– شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، نشر: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، (ج ٧/ص ٢٧).

مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: ( نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء) فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق "(1).

ومن هنا يظهر أن الباقلاني لم يكن في استدلاله بدليل الحدوث راغبا عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ وإنّما دفعه اجتهاده إلى اعتماد الحجج العقلية مع الحجج النقلية لإبطال دعوى الفلاسفة في القول بقدم العالم، ولإثبات أن " جميع العالم العلوي والسفلي لا يخرج عن هذين الجنسين أعني الجواهر والأعراض وهو محدث بأسره "، وقد تقدم فيما مرّ ذكر نصوص من كلامه على الجواهر والأجسام والأعراض – وهي ما يتكون منه العالم بكل ما فيه – وبيان خصائصها، والتدليل على حدوثها، وما كان اهتمام الباقلاني بذلك إلا لإبراز حاجتها وافتقارها إلى موجود يدبر أمرها وينشئها من عدم ويفنيها من بعد وجود، وهذا الموجود هو الله تعالى.

---

١- أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٣٠.

إن المتتبع للآثار الباقية للباقلاني يستطيع أن يلمس التزام الرجل بدليل الحدوث وبما انطوى عليه من قواعد ليس في الاستدلال على قضية حدوث العالم وإثبات الصانع فحسب؛ بل في الاستدلال على مسائل عقدية أخرى، لا سيما في أفعال الله الاختيارية.

والمقصود بالأفعال الاختيارية: الصفات المتعلقة بمشيئة الله تعالى وقدرته، التي يفعلها سبحانه وتعالى في وقت دون وقت، كالمجيء والنزول والرضا والغضب والقرب والدنو، ونحوها من الأفعال الاختيارية، كما في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري:(إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله...الخ).

فما موقف الباقلاني من هذه الصفات التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة؟

يقول الباقلاني:" وإذا ثبت أن للعالم صانعاً صنعه، ومحدثاً أحدثه، فيجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون مشبهاً للعالم المصنوع المحدث "([1]).

فلم يكن إثبات حدث العالم ووجود الصانع هو المنتهى عند الباقلاني؛ بل كانت قضية تنزيه الباري عن النقائص والعيوب من أسمى المطالب التي يجب تحقيقها والذود عنها، فالله تعالى . عند الباقلاني – شيء موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا

١- المصدر السابق ، ص ٣٢.

عرض؛ وهو موصوف بصفات؛ وهذه الصفات ليست أعراضا؛ إذ هي قديمة باقية لا تعرض ولا تزول، وفي بيان هذا يقول: " ويجب أن يعلم: أن الباري عالم بعلم قديم متعلق بجميع المعلومات، ولا يوصف علمه بأنه مكتسب ولا ضروري، وأنه قادر بقدرة قديمة شاملة لجميع المقدورات، مريد بإرادة قديمة متعلقة بجميع الكائنات، سميع بسمع قديم متعلق بجميع المسموعات، بصير ببصر قديم متعلق بجميع المبصرات، متكلم وكلامه قديم متعلق بجميع المأمورات والمنهيات، والمخبرات "([1]).

وهكذا قرر أن الله تعالى متصف بصفات ذاتية قديمة أزلية غير متعلقة بمشيئة أو قدرة، ثم يقول عن قدم هذه الصفات وأزليتها وأوليتها: " ...وبينا أنه لا يجوز حدوثها له، لأن ذلك يوجب أن تكون من جنس صفات المخلوقين، وأن تكون ذات أضداد كصفات المخلوقين، وأن يكون الباري سبحانه قبل حدوثها موصوفا بما يضادها وينافيها من الأوصاف.

ولو كان ذلك كذلك لوجب قدم أضدادها؛ ولاستحال أن يكون القديم سبحانه موصوفا بها في هذه الحال، وأن يوجد منه من ضروب الأفعال ما يدل على كونه عالما قادرا حيا. وفي بطلان ذلك دليل على قدم هذه لصفات، وأن الله

١- المصدر السابق، ص ٣٨.

سبحانه لا يجوز أن يتغير بها ويصير له حكم لم يكن قبل وجودها إذ لا أول لوجودها "([1]).

ومما سبق يتبين أن صفات الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام – عند الباقلاني – صفات أزلية محيطة بجميع شؤون المخلوقات، كما أنها قديمة لازمة لذاته لا تجدد فيها ولا تعلق لها بإرادته ومشيئته، لأن ذلك يعني وجود تغير وتحول في ذات الله، ويثبت وجود أضداد في ذات الله ويكون بذلك مشابهاً للمخلوقات.

والذي حمله على هذا القول هو هذا الأصل: " ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث "،

فأوجب نفي أفعال الله الاختيارية، بحجة أنها حوادث يستحيل أن تقوم بذات الله؛ بل يجب تنزيهه تعالى عنها.

ولو أنه أجرى مبدأ اختلاف صفات الخالق عن صفات المخلوق – الذي أثبته في بعض الصفات – على جميع صفات الله لكان صوابا؛ لأن ما يقال في الصفات التي أثبت مخالفتها لصفات المخلوقات يقال في بقية الصفات المتعلقة

١- أبو بكر الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، نشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر، ص ٢٤٥.

بالإرادة والقدرة، فرضى الخالق وغضبه ومجيئه – بما يليق بجلاله – ولا يكون كرضى وغضب ومجيء المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والحاصل أن الباقلاني سلك في نفي الصفات الاختيارية مسلكا فريدا وهو إثباتها على أنها صفات أزلية قديمة مع الله تعالى، لا تعلق لها بمشيئته وإرادته، ولا يتجدد له فيها حال كما يشاء.

إن المتأمل في مصنفات الباقلاني يستطيع أن يلمس النفس الفلسفي للرجل في دفاعه عن آرائه، وجداله الشديد مع الخصوم، وفي تمحيصه للمسائل العقدية من الناحية العقلية فهو" الذي نقل الحجاج مع المخالفين إلى ميدان العقل النظري "، لكن لا ننكر تأثره بمخالفيه وتسليمه لهم ببعض أصولهم والتزام لوازم تلك الأصول التي فيها: دليل الأعراض وحدوث الأجسام إلا أنه لا يعارض به جميع نصوص الصفات الخبرية التي تتعلق بمشيئة أو قدرة، ويثبت علو الله على مخلوقاته، ومع ذلك فقد التزم ما التزمته الطائفة الأولى في نفي الصفات المتعلقة بالمشيئة والقدرة مثل : الرضى والغضب والفرح والضحك، حتى لا يثبت قيام أفعال اختيارية في ذاته جل وعلا، مستندا إلى هذا الدليل الذي يقرر امتناع حوادث لا أول لها.

## الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج

من خلال كتابتي في هذا البحث المتواضع توصلت إلى عدة نتائج منها:

١- عظم مكانة الإمام أبي بكر الباقلاني بين أئمة أهل السنة والجماعة، وكيف كان سيفا بتارا قاطعا حجج المخالفين المدعين أنهم من أهل الإسلام، أو من غيرهم

٢- تقرير أصل دليل الحدوث في الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى، وأن هذا الدليل لم يكن من طريقة السلف.

٣- عدم تسليم كثير من أهل العلم للإمام أبي بكر الباقلاني في استدلاله بطريقة سيدنا إبراهيم عليه السلام التي اعتمد عليها في تقرير دليل الحدوث.

٤- لم يقتصر الإمام الباقلاني على الاستدلال بدليل الحدوث على وجود الله تعالى، بل التزم هذا الدليل في باب الصفات؛ حيث أوجب نفي أفعال الله تعالى الاختيارية بحجة أنها حوادث يستحيل أن تقوم بذات الله تعالى ، بل يجب تنزيهه تعالى عنها.

## أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١-اختصار النكت للماوردي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م

٢-الأنساب عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي دار النشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ت: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره

٣-الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجب الجهل به، أبو بكر الباقلاني تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م

٤-تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت

٥-تاريخ قضاة الاندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي ، دار النشر : دار الآفاق الجديدة – بيروت/لبنان – ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م ، الطبعة : الخامسة تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة

٦-تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، تعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، دار النشر : دار الكتاب العربي – بيروت – ١٤٠٤ ، الطبعة : الثالثة

٧- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م ، الطبعة : الاولى ، تحقيق : محمد سالم هاشم

٨- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، أبو بكر الباقلاني ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، نشر: دار الفكر العربي

٩- تهافت الفلاسفة، أبو حامد الغزالي تحقيق وتقديم: الدكتور سليمان دنيا

١٠- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري تحقيق: أحمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م

١١- الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي تحقيق: هشام سمير البخاري، نشر: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

١٢- رسالة إلى أهل الثغر، أبو الحسن الأشعري تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، نشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م

١٣- سير أعلام النبلاء ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله ، دار النشر : مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٣

، الطبعة : التاسعة ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي

١٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ، دار النشر : دار بن كثير – دمشق – ١٤٠٦هـ ، الطبعة : ط١ ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط

١٥- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

١٦- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ، دار النشر : هجر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٤١٣هـ ، الطبعة : ط٢ ، تحقيق : د. محمود محمد الطناحي د.عبد الفتاح محمد الحلو

١٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني دار طيبة، الطبعة الثانية – الرياض، ١٤٢٩ هـ

١٨- فهرست اللبلي ، أحمد بن يوسف بن يعقوب بن علي الفهري ، دار النشر : دار الغرب الاسلامية – بيروت/لبنان – ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : ياسين يوسف بن عياش/ عواد عبد ربه أبو زينة

١٩- فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، أبو حامد الغزالي تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية

٢٠- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ، دار النشر مكتبة ابن تيمية ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي

٢١- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور ، نشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى

٢٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ، دار النشر : دار الكتاب الإسلامي – القاهرة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٣- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، نشر: دار طيبة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م– أبو الفداء ، ٢٤- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

٢٥- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

٢٦- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الأصفهاني الراغب تحقيق: محمد سيد كيلاني، نشر: دار المعرفة - لبنان

٢٧- مقدمة ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون تحقيق: أحمد جاد، راجعه وقدم له: عبد الباري محمد الطاهر، دار الغد الجديد - القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٤٣٤.

٢٨- الملل والنحل ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ، دار النشر : دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٤ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني

٢٩- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت

٣٠- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، دار النشر : دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى

٣١- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، دار النشر : دار الثقافة - لبنان ، تحقيق : إحسان عباس